

يقول الإمام أبو حنيفة رحمه الله: "الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحب إلي من كثير من الفقه، لأنها أداب القوم وأخلاقهم"

الشيخ الدكتور فريد الأنصاري، والذكريات التي لا تنسى! - 1 -

خواطر وفاء وورثاء

الحمد لله حمدا كثيرا، والصلاة والسلام على رسوله ومصطفاه.

بينما كنت في هذا الأسبوع منقطعا في بيتي؛ حائرا بين أوراقتي، أتدبر أحوال الحاضر الغائب، الأخ الكبير، الأستاذ فريد الأنصاري، وأتساءل عن طول غربته، وعظيم كُربته في مشافي اسطانبول؛ إذا بي أتلقى نبأ نعيه من طرف أحد مقربيه وبلديّيه! ألا وهو الأخ الدكتور أمين النجدي الفلالي - سلمه الله، وسلم سائر الأحباب-!

وكلما نُعيَ إلي أخ حبيب مثل الأنصاري، تذكرت هذا البيت البليغ، للإمام البخاري-رحمه الله- :

إن عشت تُفجع بالأحبة كلهم وفناء نفسك - لا أبا لك - أفجعُ

وكما هو توجيه الإسلام لنا في الصبر عند الصدمة الأولى؛ فإني تذرّعت - بحمد الله - بالصبر والاسترجاع، وسألته تعالى أن يثبتني ويثبتني! متمثلا قوله صلى الله عليه وسلم: " إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا... "

ومن غرائب الموافقات، أن هذا النبأ الأليم فجأني، أو - بالأحرى - فجّعني وأنا أقرأ في المرض وأحكامه! وحكمه وأسراره! وكانت لي وقفات خاصة مع النظرة المتفائلة للموت، أو بعبارة الفقيه فريد-رحمه الله- "جمالية الموت"! باعتباره تسريحا من سجن الدنيا، وإعفاءً من الوظائف والتكاليف، وبابا للدخول إلى رحمة الرحمن، وساحة الجنان! وحيث أن مكانة الشيخ -رحمه الله- فخيمةٌ في قلوب أهلي وأولادي -لما لمسوه فيه من أخلاق النبوة-! فإني - بصدق - حرّتُ في طريقة إخبارهم، وتلطفت كثيرا؛ حذر أن يصاب بعضهم بسوء

! وكذلك كان! فلقد أجهشت البنت بالبكاء، وانهار الصغير، وكأنا ثكل أمه وأباه! وأصيب الباقي بالذهول! وكان يوم حداد حقيقي في بيتنا، لم نشهده من زمان!

ولما خرجت إلى الجمعة، ضربت صفحا عن الموضوع كله، إلا تلميحا لبعض المقربين؛ اعتقادا مني أو توهُما؛ بأن الشيخ نكرةٌ عند العامة، وأن اسمه لا يكاد يُعرف إلا بين بلديّيه ومعارفه! بيد أن الواقع كان

خلاف المتوقَّع! فما أن لوَّحت بالخبر، وانْبَرَيْت في الدعاء، حتى ارتجَّ المسجد بالبكاء، وعلت الأصوات بالثناء! عكس ما جرت به العادة مع غيره من الأموات؛ حتى أنني والله رثيت لحال إخواني! وأظهرت لهم من نفسي قوة وجلدًا - غير معهودين - ولكن هيهات هيهات! فلقد أحس العادي والبادي؛ أن الخطبَ جَلَل! وأن خطيبهم المكظوم، قد أصيب في صميم الصَّميم منه! ومن ثمَّ أقبلوا عليَّ - في إشفاق - يُعزُّونني في مصيبي، ويواسونني في نكبي. وهذا من فقهم - رحمهم الله - فليس نعيُّ الشقيق محمد - رحمه الله - بأشدَّ إيلاماً من نعي أخي فريد! بل إن قبض العالم - لمن يبصر - أشدُّ وأدهى! فقبضه يُقبض العلم، ويُقبَّر الفضل، ويفشو الجهل، وتعمُّ الفتن!

لعمرك ما الرزيةُ فقدُ مال ولا فرسٌ يموت ولا بعيرُ

ولكن الرزيةُ فقدُ حرٌّ يموت لموته خلقٌ كثيرُ

إن قبض الأخ فريد - حقيقةً - جرح لا يندمل، وكسر لا ينجبر، وخسارة لا تُعوَّض! وأين العوض - ياسادة - عن أبي أيوب الأنصاري؟ وأين الخلف له؟ أين العالم الجامع المشارك الفحل، الذي يجمع بين الفقه والأصول، والنثر والشعر، واللسان والقلم، والفكر والسلوك؟ أين فارس القرآن، وصاحب سلسلة "منازل الإيمان"؟ أين المحاور المناظر، الذي يجلس الساعات تلو الساعات، يحاور الشباب، ويوجه الطلاب، ويؤانس الأحاب؟ أين عضو المجلس العلمي الأعلى؟ بل أين ركنه الركين، الذي لا ينعقد الإجماع إلا به، ولا يطيب المجلس إلا بطلَّعته؟ أمثلُ هذا العالم يُصنع في شهور؟ أم يَنبُغ في أيام؟ كيف كيف طابت أنفسكم يا أهل مكناسة الزيتون! أن تُهيلوا التراب على بدر الدنيا، ورِيحانة المغرب، أبي أيوب الأنصاري؟ كيف حالكم اليوم - سادتي - وقد خسف القمر، وأظلم المنبر؟ أما تَيَّمت أرواحكم، واستوحشت نفوسكم، وأصبحتم كالشياه في الليلة المطيرة الشاتية؟ ليتني لم تلدني أمِّي! وأنا أنظر على الشاشة من بعيد إلى جثمانه الطيب؛ يُوارى التراب، ويُغَيَّب عن الأحاب! وكأني - والله - أفقد عضواً من أعضائي!! "وسبحان من حجب الفضائل بالتراب، والنجوم بالسحاب، وجعل الحياة كلمع السراب" - كما عبَّر العلامة الحجوي الفاسي، في رثاء والده سيدي الحسن - رحمه الله -!

وما آسى ياسادتي! على الشخص والصورة، ولا على اللقب والشهرة! وإنما آسى على دفن جزءٍ من ميراث النبوة، ألا وهو العلم الشريف! كما قال ابن عباس - رضي الله عنهما - لما مات زيد بن ثابت:

"دُفِنَ الْيَوْمَ عِلْمٌ كَثِيرٌ!"

آسى وأتأسرُ على فقد سليل الأنصار! وخاصة النبي المختار! - وموالئهم دين - وهم يقلُّون يوماً بعد يوم، كما تنبأ المصطفى صلى الله عليه وسلم: "إن الأنصار كَرِشي وعَيْبتي - أي جماعتي وخاصتي - وإن الناس سيكثرون ويقلون - أي يقل الأنصار - فاقبلوا من محسنهم، واعفوا عن مسيئهم" رواه مسلم.

وقال صلى الله عليه وسلم: آيةُ الإيمان حُبُّ الأنصار" رواه البخاري.

أعظم الله أجورنا وأجوركم يا أهل تافيلالت! ويأهلنا جميعا في المغرب! وعودنا وإياكم خيراً! آمين! آمين!
وأنتم يا أهل القُسطنطينية! يا أهل الكرم والجود! أحسن الله عزاءكم في أستاذكم الأنصاري! الذي حلَّ
بداركم ضيفا كريما، ومات في حجوركم غريبا! غير بعيد عن سلفه، وقريبه، الصحابي الخزرجي، سيدنا أبي
أيوب الأنصاري النَّجَّاري البَدْرِي -رضي الله عنه- فهنيئا لكم يا أهل تركيا بالأنصارين الخزرجين، أبي
أيوب، وأبي أيوب! هنيئا هنيئا لكم بهذا الشرف!

وإذا سخر الإله أناسا لسعيد فهم السعداء

ومضة:

يقول يحيى بن جعفر - رحمه الله - : " لو قدرت أن أزيد في عمر محمد بن إسماعيل "البخاري" من عمري
لفعلت، فإن موتي يكون موت رجل واحد، وموته ذهاب العلم". وجاء في الأثر: " موت قبيلة أيسر من
موت عالم " وكان الإمام القدوة أيوب السخيتاني يغسل أحد أصحابه ويقول: " إن الذين يتمنون موت
"أهل السنة" يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره..."

أجل! إني - يا إخوان - حقيقة في نكد عظيم، وحزن لا يعادله حزن على وفاة هذا العالم الكريم. وإن
أحبَّ أحبائي إليَّ ياسادتي! من يُعزِّيني وأعزِّيه فيه وفي أمثاله، من شحوس الأمة! وأرباب الهمة! الذين كرسوا
حياتهم للعلم، وأفنوا أعمارهم في خدمته؛ قاصدين وجه الله! ونفع عباد الله! فجزى الله جزاء الخير
والإحسان، من واساني وعزَّاني في العزيز أبي أيوب!. وجزى خيرا من شارك في نشر تراث الشيخ -بلا
فتور ولا انقطاع-! فيأبهاجر الكُتبي! قُمْ! قُمْ فَأَخْرِجْ لنا ما تحتك من دُررِ الشيخ، وكنوز الشيخ! ولا
تتباطأ! فإن النفوس تواقفة، والأمة عطشانة! " ولكلِّ شرِّه فترة" - كما جاء في رواية نادرة - قُمْ! فأنت
خزينة الأنصاري، والمؤمن على "صوتياته" - كما حدثنا - ولك حسنة الدارين - إن يسرت واحتسبت -
والله يوفقك ويُغنيك!

وأنت، يا من سارعت لوقف قرص "مناسك الحج" للشيخ - رحمه الله - فنفست كرباً، وأحييت قلباً! حيَّاك
الله وحبَّاك! وزادك حرصاً - أيها الكيس الخفيُّ - ! ورحم والدك، ووالدي الشيخ! آمين!

ومن أحقُّ بالحديث ياسادة! عن الكعبة الشريفة، وطيبة الطيبة، والعتره الطاهرة، والأنصار، والمهاجرة،
من سليل الأنصار، وحفيد بني النَّجَّار! من أجدر بذلك كله من هذا الأنصاري، الخزرجي، الفقيه، الباقر -
المتوسع في العلم - الذي ذاب قلبه بحب الحبيب صلى الله عليه وسلم؛ فتفجرت منه ينبوع الحكمة؟

وإنها لدروس مباركة طيبة! -أخي الحاج - فاظفر بها؛ تَلُّ حجاً مبروراً، وعملاً مشكوراً. ولا تنسنا
والشيخ ثمةً من صالح دعائك! ولك بمثل - كما جاء في الحديث -

وبعد: فما قصتي مع هذا الرجل؟ وكيف تعرفت على الفقيه فريد - رحمه الله -؟ وما سرُّ احتفائي به حياً
وميتاً؟ حاضراً وغائباً؟ وما أوجه الاتفاق والائتلاف بيني وبينه؟ - وهو الأستاذ، وأنا التلميذ، وهو المبتدي،
وأنا المقتدي -

الحقيقة، أن شطراً كبيراً من الجواب، ذهب مع ذهاب الشيخ رحمه الله! وكان - ولا شك - أقدَر مني على
التعبير

عن هذه العلاقة الأخوية السامية، التي نشأت بيننا في سنوات معدودات! وندوات معلومات! فباركها المولى
وزكاها، وأثمرها ونمّاها. ولا أجد في التعبير عنها أبلغ من قوله تعالى: "لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما
ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم". الأنفال.

وقوله الرسول الأكرم، عليه الصلاة والسلام: "الأرواح جنود مجنّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر
منها اختلف" رواه البخاري.

لقد عرفت الفقيه أول ما عرفته - رحمه الله - شاعراً مبدعاً، ينشر قصائده في مجلة "الأمة القطرية" في مطلع
الثمانين من القرن الميلادي الماضي، ولم أكن يومئذ شغوفا بالشعر، ولا مَعْنياً بقديمه وحديثه، تَبْرَه وتَبْنِه!
ومع ذلك، وجدّني أطرب لقوافيه، وأتلمس فيها المعاني الراقية الرقراقة، بشره عجيب، وصبر غريب؛ حتى
أنه كاد يستميلني - رحمه الله - إلى عالم الشعر والشعراء، على حين غفلة مني. وصدق الرسول الأكرم صلى
الله عليه وسلم: "إن من البيان لسحراً"! وكنت أحسبه - رحمه الله - حجازياً، أنصاريّاً - داراً وقراراً - إلى
أن فوجئت - بعد أعوام - بمقالاته الأسبوعية، في صحيفة مغربية؛ فأدركت عندئذ أنه مغربي أصيل، من بلاد
النخيل! - سجلماسة - وكنت - ولا أزال - متأثراً ببيانه، وعمق تحليله، وغزارة علمه! وكأني أقرأ لعالم
أديب، من طبقة سيدي عبد الله كُنُون، والنَدْوِي، وعلي الطنطاوي؛ لا لكاتب عادي، يُسَوِّد أوراقاً؛ ليقبض
أوراقاً! - فُلوساً - وزاد - رحمه الله - تألّقاً وإشراقاً في كتابه "التوحيد والوساطة..." الذي نشرته
مجلة "الأمة" القطرية. وهو لعمرى من عيون كتب التربية! - كما شهد الكبار - ومن أجود ما فتح الله به
على كاتبنا الشاب يومئذ - وافقه من وافقه، وخالفه من خالفه - وسبحان من لا يضل ولا ينسى!

ثم شاء الله عزوجل أن تعصف بي رياح الأقدار بعيداً عن الوطن الأم، في منتصف الثمانينيات من القرن
الماضي؛ فغاب عني خبر الأديب النابغة؛ إلى أن علمت به عضواً بارزاً في المجلس العلمي، بمكناسة الزيتون!
وخطيباً مفوهاً بمساجدها! وفقهياً تُشَدُّ إليه الرحال! فقلت في نفسي: لقد "عادت القوس إلى باريها" والمياه

إلى مجاريها! ولكن؛ ما حظ الرجل من فقه القرآن والسنة، وهو الأستاذ الجامعي الأكاديمي؟! وما دريتُ يومها- مع الأسف- أنه الموسوعي العصامي، بل الكنز المخفي!

وفي زيارة مباركة للمغرب، شاء الله أن أجدد الصلة مرة أخرى بكاتبنا الحبيب- في عيادة طبيب- وأن أقف له على مقال جديد، من طراز فريد! لم أعهده من أقرانه، ومن على شاكلته من الأكاديميين والمثقفين. وكان يرثي في هذا المقال فقيها قرآنيا، وإماما ربانيا، تربت على يده أجيال، وخرج من صلبه رجال، ولا يكاد يسمع به أحدا! ألا وهو المعلم الناصح، والمربي الفالح، سيدي العمراوي الفلاي- يرحمه الله- وألقبه أنا - وأعوذ بالله من قول أنا- بوالد العلماء، وولي الفقهاء! فانبرى الكاتب للكشف عن سيرته، وإبراز مآثره، بأسلوب ينضح-والله- حبا للقرآن، وأهل القرآن! حتى ليطمئن العبد أن يكون محل ذلك الميت السعيد!! فزادني الكاتب فريد ثقة بالله! واعتزازا بكلمات الله! وشدت الرحال إلى أولاد الفقيه، بل إلى علماء الفقيه! لأقدم التعازي فيه! ولا تزال الصلة القلبية قائمة بيننا وبينهم، والحمد لله! "وإلى الله نشكو التقصير"! - كما قال الذهبي-

وحاصل الكلام، أنه تبرهن لي- من خلال هذا المقال وغيره- أن الرجل مجذوب إلى الله- جذبا حقيقيا، لا صوريا تمثليا- وإن شئت فقل: هو قرآني حتى النخاع! يتنفس هواءه، ويعشق حروفه، ويتلذذ بمعانيه! وأدركت أنه ماض في هذا الطريق، طريق القرآن، مهما كانت الصعاب والعقاب!- جمع عقبة- وكذلك كان. فإن الأستاذ اللوذعي-رحمه الله- رغم شاعريته، وفحوليته في فنون شتى- وخاصة في الأدب والأصول- فإن طموحه الحقيقي، ومشروعه النهائي، الذي استقر عليه أخيرا، ونُسب إليه، ومات عليه، هو القرآن، ومجالس القرآن، وتدبر القرآن! كان هذا هو هجيره- بشهادة المؤلف والمخالف- متأثرا- في ظني- بمدرسة النور التركية، وبأستاذه ومربيه، العلامة الشاهد البوشيخي الفاسي-نصر الله وجهه-! الذي ما فتى يدعو أيضا إلى تدارس القرآن، وتداول القرآن، بمنهجية الفريدة، وأسلوبه الهادي الرصين!

وقد صادفت هذه العناية بالقرآن، هوى في نفس هذا العبد-بحكم أي طالب قرآن- فتبعت الشيخ في مسيرته القرآنية، شبرا بشبر، وذراعا بذراع، وانتظرت منه- كالعادة- إنتاجا نوعيا غزيرا في هذا المجال، يملاً الفراغ، ويتميز بالإبداع! إلى أن وقع في يدي كتابه "مجالس القرآن..." فقلت في نفسي: قد فعلها الشيخ والله! وهذا هو المنهج الذي كنا ننتظره ونتوخاه! شاملا في تعامله، سهلا في تناوله، يتلاءم مع مراد ربنا في تيسير القرآن للذكر، بعيدا عن التكلف والتفلسف، والتشديد والتعقيد... ذلكم أن القرآن- ياسادة-!رسالات الله للعالمين أجمعين، لا لأفراد معينين، أو أجناس مخصوصين. ومن ثم فلا ينبغي تلوينه بلون حزبي، أو مذهبي، أو شخصي، أو ما أشبه ذلك من ألوان، ما أنزل الله بها من سلطان. وينبغي لكل إنسان، أي إنسان، أن ينال قسطه من القرآن- قل أو كثر- مُتَعَبًا مُتَعَثِّرًا، أو متعلما ماهرا، ناظرا متدبرا، أو عالما مفسرا! تلك هي عقيدتي، وذاك هو مسلكي! إلى أن ألقى الله- إن شاء الله-

ومن ثمّ تفاعلتُ مع فكرة "مجالس القرآن" التي بشرَّ بها الشيخ؛ رغم مثاليته في الظاهر، واستعصائها على التطبيق - بضوابطها وشروطها- في واقعنا اليوم. بيد أن كثيرا مما كنا نعهده في السابق مثالا، أو خيالاً، صار اليوم واقعا ملموساً، وحقيقة ماثلةً. " والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون" سورة يوسف.

ولا أحب هنا أن أشغل نفسي أو غيري في ذكريات طريفة بيني وبين الشيخ -رغم أهميتها ودلالاتها في السياق التربوي- وحسبي أن أشير إلى ما يتعلق منها بالقرآن، ورسالة القرآن، وفاءً لذكراه- رحمه الله- ونزولا عند رغبته في أن لا نخلط القرآن بسواه!

لقد رأيتُه -رحمه الله- كيف تفاعل مع آيات قرأتها بين يديه، في ندوة علمية؛ حتى أنه رفع عقيرته قائلاً: "أصبت يا جماعة بالانهيار! ألا وهي قوله تعالى: "ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم لا تمدن عينيك... " سورة الحجر.

ومعلوم أن ذلك لم يكن بسبب نداوة صوت، أو حُسن أداء. فالقراء غيري كثير! والمتنغمون أكثر! ولكن؛ بسبب آخر - في تقدير هذا العبد- ألا وهو تغلغل الرجل في معاني الآيات! وغوصه في أعماقها! وهو الأديب الذوّاق، والعارف المشتاق، الذي صدّع القرآن قلبه، واختلط بلحمه ودمه! " ولو أن قرآنا سُيرت به الجبال أو قُطعت به الأرض أو كُلم به الموتى... " سورة الرعد.

وكنت قد قرأت للأستاذ إحسان قاسم الصّالحي، في مجلة "حراء" الغراء- فيما أذكر- أن الشيخ الأنصاري المغربي لا يدع قيام الليل في سفر وحضر! وأنه شاهد ذلك منه على مدى أسبوعين كاملين، في رحلة علمية بماليزيا؛ فصارت كل شعرة في بدني تحنُّ إلى هذا العالم العامل! ثم سألت ربي- رغم ذنوبي وعيوبي- أن يُريني منه ذلك عياناً! فإن هذا-والله- مما تقرُّ له العين، ويفرح له الربُّ، ويعزُّ وجوده في آخر الزمان! روى الطبراني بإسناد حسن، عن أبي الدرداء -رضي الله عنه- قال صلى الله عليه وسلم: " ثلاثة يحبهم الله عزوجل ويضحك لهم، ويستبشر بهم... والذي يكون في سفر، وكان معه ركب، فسهروا ونصبوا، ثم هجعوا، فقام من السّحر في سرّاء أو ضرّاء... " وقد ورد في حديث رجاله ثقات: أن الذين يضحك الله لهم هم من أهل الجنة!.

رجاء ودعاء:

ولهذا كان الشاعر الهندي، محمد إقبال-رحمه الله- يقول: " خذ مني ما شئت يارب، ولكن لا تسلبني اللذة بأنّة السّحر، ولا تحرمني نعيمها"! وقال أيضا: " كن مع من شئت في العلم والحكمة، ولكنك لا ترجع بطائل حتى تكون لك أنّة في السّحر"! إي وربّي! فاللهم باسمك المتّان! منّ علينا بذلك، ولا تحرّمنا!.

ولما نزل الشيخ - رحمه الله - ضيفاً عزيزاً على "تجمع المسلمين بفرنسا" شاء السميع المجيب أن أكون إلى جواره في الفندق - من غير تقدير مني ولا تدبير - فقلت في نفسي: سبحان الله! هذا هو الأنصاري بلحمه ودمه! وهذا هو جوف الليل! فلأنظر ماذا يكون؟! وما هي إلا لحظات؛ حتى سمعت للشيخ دويّاً بالقرآن كدويّ النحل؛ فأفقتُ قائلاً: الله أكبر! "صَدَقَ الْخَبْرَ الْخُبْرُ!" كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، وبالأسحار هم يستغفرون" سورة الذاريات.

منع القرآن بوعدده ووعيده مُقَلَّ العيون بليها أن تهجعا

فهموا عن الملك الكريم كلامه فهما تذلُّ له الرقاب وتخضع

و سمعته - يرحمه الله - يقرأ في بيتنا سورة الفرقان - الحبيبة إلى قلبه -! بعد صلاة الفجر؛ فلم أر أخشع منه، ولا أحرص على التدبر! يقرأ على السجّية، بنعمة مغربية، ولا يعنيه - فيما رأيت - إلا التلقي عن الله! والاستشفاء بكلمات الله! ولا زلتُ إلى الآن؛ أتغذّي بهذه الحال! بل كلما استحضرتُ ذلك؛ تَرَقَّرَقَ دُمعي، ورَفَّرَفَتْ رُوحِي! ولعل هذا من دلائل إخلاص الشيخ - رحمه الله - "يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين، قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون" سورة يونس.

و كنت أجده - أفسح الله في قبره -! يقفُ طويلاً أمام الكلمات القرآنية والحديثية، ويجعلها هي المحور، والجوهر، والمتن، وسواها شروحا وحواشي! وذاك مئنة من فقهه! - يرحمه الله - فإن "فضل كلام الله على سائر الكلام، كفضل الله على خلقه" - كما جاء في الأثر - والعجب كلُّ العجب، مَن يُشغله الشارح عن الشارح! العجب ياسادة! مَن يُتمِّمُ بكلمات الوحي، ويختزها في لآزمة: "إلى آخره، إلى آخره...!" فإذا مرَّ بكلام شاعر، أو مفسر؛ طار به فرحاً! وغنى مع المتيم الوهّان:

وحدثني ياسعدُ عنها فردتني جنونا فزدني من حديثك ياسعدُ

هواها هوى لم يعرف القلب غيره فليس له قبل وليس له بعدُ

وكان الشيخ - يرحمه الله - لا يبخل في حديثه بالصلاة على النبي الكريم، والترضي عن آله وصحبه، والترحم على ورثته، مع الحرص على تحلية العلماء والأولياء بألقاب التجلة والتعظيم! مسترشداً بقوله تعالى: "ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه" سورة الحج. وقوله عز وجل: "والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان" الحشر.

وكان أحبَّ القراء إليه - كما حدثني - الشيخ الدكالي "الليبي". وهو شيخ مبارك متقن، قد لا يعتني كثيراً بالألحان، ولكنه إذا قرأ القرآن حسبته يخشى الله! - وفي كل القراء خير! -

بل إن أستاذنا- أعلى الله مقامه- كان يُجلُّ أهل القرآن عامة، ويُثني عليهم، ويُدنيهم، ويصليهم بأنواع الهبات والعطيات- كما حدثنا الثقة- وهذا فرع عن مكابدة القرآن، ومحبة القرآن. فمن أحب القرآن أحب أهله!- قولاً واحداً- يقول صلى الله عليه وسلم: " إن من إجلال الله تعالى: إكرام ذي الشبهة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط" رواه أبو داود من حديث أبي موسى الأشعري. وحسنه النووي، والذهبي، والعراقي .

وكان يحافظ على الوضوء في سفره، - على المكروه- والصلاة بعده، ويقول: " الوضوء سلاح المؤمن في معركته ضد الشيطان". لما طلع علينا ونحن جلوس عند أحببتنا في منطقة "ليل، الفرنسية" سلم سلاماً خفيفاً، ثم فزع إلى الصلاة؛ يُناجي ربه! وينثر كنانة قلبه! - في وله عجب- فأيقنت أنه في شأن، ونحن في شأن! أي: أنه بين الخلق بجسمه، ومع الله بروحه! كما قيل:

جِسْمِي مَعِي غَيْرَ أَنَّ الرُّوحَ عِنْدَكُمْ فَالجِسْمُ فِي غُرْبَةٍ وَالرُّوحُ فِي وَطَنِ

وكم رغبتُ إلى الأستاذ القرآني الرباني أن يؤمنا في الصلاة؛ لأتبرك بقراءته، وأهل من خشوعه! فلم يكن جوابه - رحمه الله- إلا الرفض والامتناع! ولعلي طوّلت عليه أحيانا في الصلاة- من غير قصد- ولم أراع ضعفه - كما علمتنا السنة- فما ترحزح- رحمه الله- ولا تنحج، ولا تأفف ولا ضجر؛ بل كان لسان حاله يقول في خشوع المؤمن: " أرحنا بها يابلال!" رغم ما كان يعاينه- رحمه الله- من آلام وأسقام، لو نزلت - والله- على جبل هَدَّتْهُ! فكيف بصاحب جسم نحيف، وعظم واهٍ ضعيف!

وَإِذَا حَلَّتْ الهِدَايَةُ قَلْبًا نَشِطَتْ لِلْعِبَادَةِ الأَعْضَاءُ

أَوْ لَيْسَ -ياسادة- هو صاحب كتاب "قناديل الصلاة"؟ فمن يخطر على باله مثل هذا العنوان، ومن يفيض قلبه بهذا العرفان، إلا المتلذذون بالقرآن، المناجون للرب الرحمن؟ من من -ياصاح- يستطيع أن يصوغ بقلبه ووجدانه، ما صاغه فريد في "القناديل" وفي "جمالية الموت" وسائر أعماله وكتبه، إلا أن يكون عارفا بربه، مشاهدا بقلبه؟!

حكمة عطائية:

وصدق العارف ابن عطاء الله، إذ يقول في حكمه: " من أذن له في التعبير فهمت في مسامع الخلق عبارته، وجليت لهم إشارته" الله أكبر على هذا الكلام! الذي تُشد إليه الرحال، ويُكتب بسواد العيون!

رجاء ودعاء:

فيا أخي في القرآن! كن فصيحَ الجَنَانِ؛ تكنْ فصيحَ اللسان! "اقرأ باسم ربك الذي خلق" لا باسمك أنت؛ يُكرمك الله بالفتح، ويتصدق عليك بفيوضات علمه "إنما الصدقات للفقراء والمساكين" سورة التوبة. فاللهم
إننا فقراء إليك! فأوف لنا الكيل وتصدق علينا! آمين، آمين!!!

أتيتك بالفقر ياذا الغنى وأنت الذي لم تزل محسنا

رحمك الله يافارس القرآن! فلقد كنت قرآنيا في لغتك، ربانيا في معجمك! تقتبس من القرآن ألفاظا لا
يستخرجها إلا الغواصون في بحر القرآن، وكانت هذه الألفاظ التورانية تُضفي على بيانك الساحر مُسحةً
من الجمال والجلال، تأسر النفس، وتونس الروح، وتملأ القلب سكينه ورحمة! ولا زالت أصواتك العذبة
الطريئة، تصدح في كل مكان، توقظ النائمين، وتشهد لك عند رب العالمين. هنيئا لك أخي بهذا القبول! -
حيا وميتا- وسلام عليك في الآخرين!

وكنت أقدر من عرفت - أيضا - على توظيف العامية في خدمة القرآن، ورسالة القرآن - داعيا وهاديا -
حتى ليخيلُ إليك أن الأستاذ الدكتور لا يعرف غيرها! ولكنه إذا نطق بالفصحى أتى بالمليح؛ حتى ليقول
القائل: ليته بقي في الساحل!

سمعتة مرة يحدث أهل بلده تافيلالت - أهل الفطرة والوفاء - فما رأيتهم يتميز عنهم - رحمه الله - في نبرة، أو
نكته، أو تعبير! بل أزعج أنه يتفوق عليهم أحيانا في الأمثال الشعبية، والحكم الضاربة أطنابها في القدم!
وكانه بقية الأجداد في الأحفاد! ورأيتهم - يرحمه الله - يحثهم على تلقين أولادهم اللهجة العامية - على
علتها - باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من لغة القرآن، وثقافة القرآن، ولا ينقصها في الغالب - حسب رأيه - إلا
بعض أدوات الربط، وقواعد النحو والصرف! بل إنه يشارك أيضا بلكنته الواضحة، في الأمازيغية،
ويتحجب إلى أهلها؛ برورا بأمه النيفية، الصخرأوية، وحفظاً لوُدّها - كما علمنا الإسلام - فإذا خالط
الأتراك وغيرهم؛ اندمج فيهم، وحدثهم بما يعرفون! ومن ثمّ اجتمعت عليه القلوب في كل مكان، وانجذبت
إليه انجذاب الحديد إلى المغناطيس! وصدق الإمام علي - رضي الله عنه - : "من لانت كلمته، وجبت
محبتة!"

نداء واقتداء:

فيا إخوتي الأعزاء! أناشدكم الله أن تفتدوا بأخيكم فريد، وأن تراعوا مقاصد الشريعة في الخطاب! تحروا - رحمكم الله - السهل الممتنع! واجتنبوا الإطناب والإغراب! والمُعَمَّيات والألغاز! فإن التكلف - والله - لا يأتي بخير!

وما قيمة التكلف والتفلسف، ونصف أمتنا - يأسادة - أمي عامي، لا يكتب ولا يحسب؟!!

ما قيمة كلام لا يفهمه إلا صاحبه، أو حفنة قليلة من "النخبة"؟! أو ليس الرباني هو الذي يُربي الناس بصغار العلم قبل كبارهم؟ - كما قال ابن عباس رضي الله عنهما - فلنكن ربانيين قرآنيين مقاصديين إذاً، كما كان فقيهاً فريد - يرحمه الله -! "ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون" آل عمران.

نعم يا صاحب القرآن! لقد كنت قرآنياً - حقاً - في أقوالك. ربانياً في أحوالك وسلوكك. كما شهد لك أحبابك وخصومك، في حياتك ومماتك - ولا نزكي على الله أحداً -

رأيتك ياسيدي! كيف تصغي إليّ بوقار، بل تكاد تضع أذنك في فمي - تذلاً وتواضعاً - وأنا أحدثك وأذاكرك - مستفيداً منك - وكأني أنا الأستاذ، وأنت التلميذ، أو أنا الكبير، وأنت الصغير. بل رأيتك تفعل هذا مع الصبي، والعجوز، والعامي، والامي، وتخضع الجناح للمؤمنين، كل المؤمنين، كما أمر الله: "واخفض جناحك للمؤمنين" سورة الحجر. فإذا ما أفرطت على أحد من تلاميذك أو أصحابك، أو قسوت عليه - ترهيباً وتعليماً - طار نومك! وطال حزنك! وأخذت سماعة الهاتف؛ تتودد إليه كالطفل الصغير؛ أن يجعلك في حلٍّ - كما أخبرني بذلك الثقة - أما إذا بلغك خطابٌ من مادح، أو قادح؛ فإنك لا تتصفحه وحسب؛ بل ترتشفه ارتشافاً! ولا تستنكف عن ردِّ التحية بمثلها، أو بأحسن منها! - إلا عجزاً أو سهواً - وهذه تربية القرآن: "وإذا حُيِّتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا" النساء.

ولا أنسى أنك قلت في خطبة لك - بالمعنى - : "يا شباب! عودوا العصاة! وصلُّوا على كل برٍّ وفاجرٍ من أهل القبلة!". وما جاء في "باب الجنائز" من اجتناب الإمام والفاضل الصلاة على عاصٍ مخصوصٍ - من باب الزجر - فهذا صحيح مليح؛ لكن اعلِّموا! أنني وإياكم لسنا من هؤلاء الأئمة! ولا من أهل الفضل! أبداً أبداً. أنا وأنتم يا جماعة من العامة! فافهموا هذا ولا تغتروا!

أما معلّموك ومرّبوك؛ فلقد كنت لهم وقياً، وبهم حفيّاً - كما علمك القرآن "ولا تنسوا الفضل بينكم" البقرة. - وقلت عنهم بالحرف - في رسالة متداولة - : "وأما معلمي ومرشدي؛ فما زلتُ إلى الآن - وإلى أن ألقى الله إن شاء الله - أقبّل رؤوسهم وأيديهم، وأجلس متعلماً عند أقدامهم، وأعوذ بالله أن أنكر فضلهم! رحم الله من مات منهم! وبارك في عمر من بقي!"

وبقدر ترقّيك في مدارج الإيمان والقرآن؛ كنت - ياسيدي - ترداد رقةً وحناناً! وخشوعاً ودموعاً! حتى أنّ لِدَاتِكَ - أقرانك - عجبوا لأمرك، واندھشوا لسرك؛ بل وتحدث بعضهم عن فريدٍ القديم، وفريدٍ الجديد! وكذا يفعل القرآن بأهله، إذا خالطت بشاشته القلوب! " لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيتَه خاشعاً متصدعاً من خشية الله " الحشر.

ومضة: يقول الإمام ابن باديس رحمه الله في "مجالس التذكير": فوالله الذي لا إله إلا هو! ما رأيتُ - وأنا ذو النفس المملأى بالذنوب والعيوب - أعظمَ إلانةً للقلب، واستدراراً للدمع، وإحضراراً للخشية، وأبعثَ على التوبة من تلاوة القرآن، وسماع القرآن!

وكم عبّرت لي يا أستاذ! عن بغضك للمتكبرين، وحبك للمتواضعين! وما رأيتك تُثني على ابن أنثى؛ ثناءك على عباد الله المخلصين! والمتواضعين! والمتعفّفين!

ومضة: سئل الإمام المربي الجنيد - رضي الله عنه -: أي العلم أنفع؟ قال: " ما دلّك على الله تعالى، وأبعدك عن نفسك! "

أجل! كان طبعك الجاد - سيدي - يكره المظاهر الكاذبة، والمجاملة الزائدة، والأبهة الفارغة. شعارك: الصدق في الأقوال، الصدق في الأفعال، الصدق في الأحوال! " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين " التوبة.

أما المتفهيقون، والمتعالمون، والتفعيون - الذين يأكلون الدنيا بالدين - فقد كانوا أثقلَ على قلبك من الرصاص! وأشدَّ عليك من الحمى! وكنْتَ تعرفهم - أخي - بفراصة المؤمن؛ فتتألفهم إلى حين، أو تلفظهم لفظ النواة؛ متمثلاً قول الله عز وجل: " أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك أن لا يزكى " عبس. وقوله تعالى: " فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا " النجم.

ولم أسمع منك - على مدى ثلاث ليالٍ حُسوماً - حديثاً عن النفس، أو " الأنا " إلا في نطاق نقدها ومحاسبتها! وكأنك تستحضر قول الحكيم السكندري - رحمه الله -: " استشرأفك أن يعلم الخلقُ بخصوصيتك، دليلٌ على عدم صدقك في عبوديتك " أو قول الشاعر الفقيه:

أمران مفترقان لست تراهما يتشوقان لخلطة وتلاق

طلبُ المعاد مع الرياسة والعلی فدع الذي يفنى لما هو باق

ما حدثنا يادكتور! عن كتبك وبحوثك، وعلمك وشواهدك، وتلامذتك وأبنائك، ولا حدثنا عن وظيفتك ومهنتك، ولا عن مسكنك ومركبك، ولا عن أصلك وفصلك، ولا عن مرضك وعافيتك، إلا أن نسألك عن ذلك سؤالاً؛ فتجيب - على مضض - بل حدثنا حديث العاشق الوهّان، عن منازل الإيمان، ومقامات

الإحسان، ومجالس القرآن! لأنك كنت تعلم - بتعليم الله لك - أن هذا وحده من عُدة القبر، وزاد المعاد!. وسواه أنانيّة، وعُجب، واختيال، ولغو، وهُو، وسراب، وياب! -عافانا الله-

"المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا" سورة الكهف.

وكنت ياسيدي! من الأفاذ الذين لا يعبرون عن كل ما يعلمون، أو يجيبون عن كل ما يسألون - تورعا وتواضعا - أحلتَ الجوابَ على هذا العبدِ مرّةً - ولستُ بذاك -! وسمعتُ بأذني هاتين؛ تعتذر عن الفتوى - في الملا - وتقول في صرامة ووضوح: "لا. لا. لن أجيب؛ حتى أراجع! أنا المسؤول! أنا المحاسبُ يوم القيامة! نسأل الله العافية!" وكانت هذه الكلمات الصادقة، تنزل على قلبي كالصاعقة! بل كانت -والله- أبلغَ عندي وأنفعَ من ألفِ إجابة! وهل هناك أنفعُ ياسادة! من دروس الورع والخشية؟ والقُدوة والأسوة؟

ذكرى لأولي الألباب:

يقول ابن مسعود -رضي الله عنه-: " كفى بخشية الله علما"! وسئل الإمام أحمد عن الزاهد معروف الكرخي: هل معه شيء من العلم؟ فأجاب الإمام: " نعم يا بني! معه كل العلم، وهو خشية الله تعالى!"

وقال شيخ العارفين - كما لقبه ابن القيم - الإمام الجنيد: " العلم: أن تعرف ربك، وأن لا تعدو قدرك!"

دعاء واقتداء:

اللهم عرفنا بك أولا، ثم بأقدار أنفسنا! فإنه "من رفع نفسه فوق السوق؛ رده الله إلى سِعْرِهِ" - كما قال حكيم -

فدُلُونِي ياناس! على نموذج كفريد! أروني من قال على المنبر، أو على "الهواء" مباشرة: لا أدري! أو نظرةً إلى ميسرة! أو ما أشبه ذلك - بلا إخفاء ولا غنة!

لا جرمَ أن هذا كائن؛ لكنَّ الفقير - القصير الباع والاطلاع - لم يرَ هذا إلا من فريد الفريد!

أتمنى على الزمان محالا أن ترى مُقلتاي طلعة حُرّ

وكم كنت يا عبد الله! تكره المدح والثناء، والتسميع والرياء، مكتفيا بعلم الله فيك، ونظره إلى قلبك! مردداً على الدوام: "الله يستر العيب، الله يستر العيب"! وما صورتك الأخيرة - على شبكات الإنترنت - إلا تعبير عن هذه البذاذة الإيمانية! وترجمة ناطقة لسجود القلب لله! - إن شاء الله - وما رآك أحد في سَمْتِكَ وصورتك هذه إلا ذكر الله! وأحبَّ أهل الله! كما قال صلى الله عليه وسلم: " أولياء الله، الذين إذا رؤوا ذُكر الله". لا إله إلا الله!

لمعة:

ورحم الله القائل!: "من لم ينفَعك لَحْظُهُ، لم ينفَعك لَفْظُهُ" نعم، لن ينفَعك؛ مهما أمعن في التزويق، وبالغ في الشهيق! أو بعبارة أقرب لابن عطاء الله: "من لم يُنهِضْكَ حاله، لن يَدُلَّكَ على الله مقالهُ" ذلكم أن الرفع الخافض، المعز المذل، هو الله تعالى وحده، سبحانه! سبحانه! - فالله الله إخواني في السرائر!!! الله الله في الإخلاص!!!

وأما لقب "دكتور" الذي تشرف بك، ولازمك، وزائِكَ، فإنك قد زهدت فيه أخيراً - كما حدث أحبابك - واستبدلته بلقب أستاذ، أو فقيه، أو طالب قرآن؛ تواضعا منك، وتهذيباً لأصحابك! وكنت تغبط بعض الأصحاب، على زهدهم في المظاهر والألقاب! - كما سمعت منك - وهذه تربية القرآن! وهذا شأنُ عباد الرحمن "الذين يمشون على الأرض هَوْنًا...." سورة الفرقان.

وكم كنت تترنم في خلواتك وجلواتك بمقولة بديع الزمان، و"آخر الفرسان" سعيد النورسي! - يرحمه الله - "ياسعيدُ كن صعيدياً! في نكران تام للذات، وترك كلي للأناية، وتواضع مطلق كالتراب!"

وكن أرضاً لينبت فيك وردٌ فإن الوردَ منبته الترابُ

تأسُّ واستنهاض:

فما أحوجنا أيها الفقيه العزيز! إلى الزاهدين مثلك في "الأجور المعنوية" التاركين أنانيتهم بالكلية!

ما أحوجنا يا أخي! - في هذه الأزمنة المزمّنة - إلى صفاء السريرة، ونكران الذات، والتفاني في المجموع.

ما أحوجنا إلى ضمائر "نحن" و"أنتم" و"هم" و"هن" بدلا من التغيي سرمداً ب: "أنا" و"عندي" و"لي" وإسناد غلّاتٍ أشخاصٍ متعددين لشخص واحد! - سمّه المُقدّم الرائد، أو العميد المدير، أو الإمام الراتب، أو الشيخ المعلم، أو العصاميّ العبقريّ، أو ما شئت من ألقاب! - على حين، أن ذلك من عرق المجموع! وغراس المجموع! وحصاد المجموع! - لمن كان عنده مُسكّةٌ إنصافٍ!

أما رأيت أهل الإيمان عندنا يافريدنا الفقيه! يتغيرون تغاير التُّيوس في الزرّية - على حد تعبير ابن عباس - ويكيدون كيد الضرائر؟! أما رأيت أن الأمة في كل مكان، تعاني من فقرٍ مُدقِّعٍ في فقه الاختلاف، وأدب الحوار. وكأن لسان الحال يقول مع الغابرين: "إمّا معنّا، أو عَلَيْنَا"!

كيف تغارين يانفسي المخدوعة! من شخص يُؤدي عنك فروض الكفاية، ويحملُ معك الأثقال، ويؤنسك في الطريق، ويسدُّ عنك باباً لا تستطيعين سدّه؟ ماذا يضيرُك يا قلبي العليل! أن يَبزَّكَ - يغلبك - زيد أو عمرو، أو أن تُقبَلَ عليه القلوب، وتَهْوِي إليه الأفئدة، أو أن يركع في غير مسجدك، ويقراً في غير مقرّاتك، إن كنتَ حقاً تعمل لله، لا للشهرة والجاه؟!!

نفثة مصدور:

أي لوثة يا قوم! أصابت المسلمين في بلاد الروم! حتى صرنا إلى هذا الوضع المشؤوم! ورحم الله شاعرنا
المجذوب على هذه الأبيات؛ بل الزفرات، التي اتخذ منها أنشودة يومية؛ كلما اشتدت عليه مصائب
المسلمين - وما أكثرها - ! :

يا خليلي خلياني وأشجاني أناجي أطيافهن وحيدا

لقد عصتني الدموع، لكن قلبي في جحيم الأسي يدوب ويئدا

وجراح الإسلام من كل صوب قاتلاتي، وإن بدوت جليدا

إن التغاير بين أهل القبلة هنا - يا أحباب الفقيد -! أشد مضاضة من قصة المآذن في جئيف! و"فوبيا"
الإسلام في أوروبا! - بلا مبالغة - بل إنك لتتفادي - والله - أن تذكر مؤمنا ههنا بخير؛ سدا للذريعة!
وحمية للعرض! أي: خشية أن يُسمعك المترصد، العليل، الغيران، ما لا يحل سماعه، ويحرم ذكره! فنعود
بالله من الوسواس الخناس! ونعود به من أقوال تخالف الأفعال! "أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من
فضله" النساء.

وتربّع القرآن - أخي فريد - على عرش قلبك، فلم يعد يلهيك عنه نثر ولا شعر - مهما كانت طلاوته -!
وكلما عرض عليك كتاب أو مقال، ناديت بلسان الحال: "ذلك الكتاب لا ريب فيه..". سورة البقرة.

الله أكبر! على هذا النضج العلمي، والطهر القلبي، الذي لا يأتي بين عشية وضحاها!

ومن هذا الكتاب الذي لا ريب فيه - القرآن - كنت يا غواص! تستنبط مسائل، لم يذكرها الأوائل!

وكذا رَوَوْا عن سلفك القرآني، الإمام الشعراوي - رحمه الله - الذي عكف سنوات على تدبر القرآن،
فكان ما كان من معارف ولطائف، أدهشت الخاصة والعامة! فاللهم لا مانع لما أعطيت! ولا معطي لما
منعت!

تبصرة:

يقول ذو الثورين - عثمان - رضي الله عنه: "لو طهرت قلوبنا لما شبت من القرآن!"

وكم كان يؤلمك ويؤذيك يا عبد الله! اتمامُ العامة لك بالفرار منهم، والاحتجاب دونهم -خلافًا لعادتك- بدعوى أن المناصب قد غيّرتك، والدنيا قد أكلتك! وما علموا أن الذي غيّرك وأكلك حقًا، هو المرض العضال! الذي أوهن عظمك، وسلب شبابك، وكدر مزاجك. آه! لو كانوا يعلمون! آه على المرض! وكيف يُكدرُ الطباع! ويغيّر الرجال! نسأل الله تمام العافية ودوامها! وصدق الله في كتابه: " ليس على الاعمى حرج، ولا على الأعرج حرج، ولا على المريض حرج... " سورة الفتح.

آلة العيش صحّةً وشبابٌ فإذا ولياً عن المرءِ وليّ

ما أعذرك يا وليّ الله! وأنت مُسجى في ثيابك، مُلقى على سريرك- لا حول لك ولا قوة- تكتب على جنب، وتنام على جنب، وتصلي على جنب! ولذلك كنت تترجى أيها العزيز! أن تستعيد عافيتك عاجلاً، لا لأجلك أنت أنت! ولكن من أجل هؤلاء المساكين، الذين أحسنوا الظن بك، وازدحموا على بابك ومحرابك -كما حدثني- وهذا من أخلاق القرآن، وشمائل النبي العدنان " فيما رحمة من الله لنت لهم... " آل عمران. " لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم. حريص عليكم. بالمؤمنين رؤوف رحيم" سورة التوبة.

وعن عبد الله بن شقيق، قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: " أكان نبي الله صلى الله عليه وسلم يصلي جالساً؟" قالت: " بعد ما حطّمه الناس" رواه أحمد ومسلم، وغيرهما. ومعنى حطّمه الناس: أي صيّروه شيخاً محطوماً، بما حمّلوه من أثقالهم وهمومهم.

وكنت قرآنياً أيضاً إلى النخاع يافريد العصر! في تعاملك مع غير المسلمين، في أرضهم وديارهم. تقول لهم حسناً، كما أمر القرآن " وقولوا للناس حسناً" البقرة. " لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من ديارهم أن تبروهم وتقسطوا إليهم. إن الله يحب المقسطين" سورة الممتحنة.

لما خرجنا إلى الثلوج، بمنطقة "لُفُوج" كنت أنت السَّبَّاقَ إلى محادثتهم، و"الانفتاح" عليهم! - مكسراً حاجزَ الخوف والحدرا! - وطاوعتني -رحمك الله- في لبس المعطف -رغم أصالتك- تأليفاً لقلوبهم، وجرياً على عادتهم، فيما لا بأس به شرعاً - وأنت الفقيه المقاصدي النَّظَّارُ- وما مررت -رحمك الله- بشجر أو حجر إلا ذكرت الله فيه! وما مررت ببرٍّ أو فاجرٍ إلا بششت في وجهه، وآنسته بقولك - غير راغب ولا راهب- حتى أن الجيرة- على غير العادة- فطنوا لمقدمك، واستأنسوا بطلعك، وعجبوا لأخلاقك!
لله قومٌ إذا حلُّوا بمنزلةٍ حلَّ الندى ويسيرُ الجودُ إن سارُوا

وقلت -رحمك الله- بتفاؤل المؤمن: " سأجتهد في تجويد فرنسيّتي، وأكرر زيارتي! وأشهدكم أنني قد صحّحتُ صورتي عن الإسلام وأهله في الغرب! فالحمد لله الذي جاء بي إليكم! الحمد لله الذي أراني ما تقرُّ له العين!... ". أو كلاماً هذا معناه.

اهتداء واقتداء:

فيأهل القرآن! تأسّوا بفقهاءكم! اخرجوا من خلواتكم! وامشوا في الناس بأنواركم. " أو من كان ميّنا فأحيناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها.. " سورة الأنعام.
فما تُعني الخلوّة- ياسادتي-! وهذا عصر العولمة؟! وما تُعني العزلة عن الخلق، وقد كان سيد الأتقياء يَغشى النوادي، ويمشي في الأسواق؟

تبصرة قرآنية:

أثنى الله على عبده عيسى بن مريم في القرآن ؛ فقال- على لسانه-: "وجعلني مباركا أينما كنت" أي نفاعاً لعباده أينما حللتُ- كما قال العزُّ بن عبد السلام-

وكنت قرآنيا-ياأخي فريد- وأنت تقرأ الكون قراءتك للقرآن. أي: تتفكر في الكون المنظور، كما تتدبر في الكتاب المسطور.

قليل قليل -إخوتي- هم أولوا الألباب، في هذا الزمان "الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السموات والأرض" آل عمران. وكنت أنت -أيها الحَبْرُ- من هذا القليل، ومن هذا القبيل! - وما شهدنا إلا بما علمنا- تنظر في ملكوت الله... مسبحا مهللا، ذاكرا مستغرقا! ولك في كل نظرة فكرة وعبرة! فسبحان من هداك واجتباك! سبحان من علمك وزكاك!

وإني لتعروني لذكراك هزةٌ كما انتفض العصفورُ بلله القطرُ

وكنت قرآنيا ربانيا،- ياسيدي- لما سارعت إلى صلة قرباك، رغم ضيق وقتك، واعتلال صحتك، وقلة حيلتك! رأيتك كيف نزلت بعصاك، تلتزم ابن خالتك -العامل المغمور في فرنسا- وتُعبّر له عن خالص حبك، وحرارة شوقك! معتزا به، مقدّما له على غيره، دون تصنع ولا تكلف، ولا استعلاء ولا كبرياء. وما هذه إلا أخلاق قرآنية، ربانية، نبوية، وترجمة فصيحة لقوله تعالى: "وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله... " سورة الأنفال. ولقوله صلى الله عليه وسلم في وصف أهل الجنة: " ... ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم" رواه مسلم.

نداء واهتداء:

فيإرفقاء السفر إلى دار المستقرّ! ياإخوتي في القرآن! إن كُنّا متأسّين بعالمنا فريد- حقا- فلنخرُجْ إلى العالمِ بأخلاق الوحي الثابتة الراسخة! لا يمزاجنا الشّخصي، الذي يتلوّن بتلوّن النوازل والأحوال! سئلت

عائشة- رضي الله عنها- عن أخلاقه عليه الصلاة والسلام، فقالت: " كان خلقه القرآن! نعم، هذه هي الأخلاق التي تنفع الناس، وتمكث في الأرض! وغيرها نفعي، مزاجي، تجاري، آني! "... ما لها من قرار! سورة إبراهيم.

اللهم باسمك الرحيم ارحمنا! وارحم بنا! واهدنا لأحسن الأخلاق! إنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت!

ولقد كنت قرآنيًا، رقيق القلب ياسيدي! وأنت تلين للولدان، وتسلم على الصبيان، وتضعهم في حُجرك، وتضمهم إلى صدرك- فرحاً مسروراً- فيأنس الأبوان، وتنزل السكينة، وتعم الرحمة، ويسعد الجميع! فهنيئًا هنيئًا لك أخي بهذا الخلق! ووقفنا الله نحن إلى ذلك! آمين آمين!

تذكير وتحذير:

فيا حمالَ رسالة القرآن! اقتدوا ترشدوا! هذه أخلاق نبيكم، وأنتم ورثته؛ فارحموا الخلق، وخافوا الحق! ولنفتكِر مرة أخرى؛ أن أنجع وسيلة لخدمة الدين؛ هي السماحة واللين، واتباع هدي المرسلين، وآخر وسيلة وأخطرها: المكروفون! والتلفون! والشاشات! والأضواء! والألقاب! فيا أيها المبتلى المسكين أفق! يانفسي المغرورة! تأملي قول الإمام القدوة السري السقطي، الذي كان يعجبه ما يرى من علم الجنيد "السالك" وحسن خطابه، وسرعة جوابه، فقال له يوما: "أخشى أن يكون حظك من الدنيا لسانك"! وكان الجنيد الإمام لا يزال يبكي من هذه الكلمة! فماذا يقول "جنيد" آخر الزمان؟! بل ما ذا نقول نحن يا إخوان؟ فاللهم أجرنا من التسميع والتلميع! يا بصير ياسميع!! آمين. آمين! ولو استرسلت في عدد مناقبك وذكرياتك - ياسيدي- لطلال بي المقام، ولو ذكرت هذا في حضرتك وحياتك؛ لما أذنت لي أو لغيري بقليله أو كثيره!. وما كنت أنا- الفقير إلى الله- لأغامر بذلك، إلا مع من غيَّبهم التراب، وأفضوا إلى رب الأرباب! لأن "الأحياء لا تؤمن عليهم الفتنة" كما قال ابن مسعود-رضي الله عنه- نسأل الله الثبات، في الحياة وبعد الممات!

وقصدي من هذه السوانح والخواطر- التي لم تأت مرتبة إلا بحسب تواردها على الخاطر- أن نستقي من حيث استقى الفقيه فريد- يرحمه الله- وأن نتضلع جميعا من ماء القرآن، وكوثر القرآن، وأن نرتقي في العناية به درجة درجة، ومنزلة منزلة، كما هو واضح في شعاره: " من القرآن إلى العمران"

وأعتقد أنه قد آن الأوان، لنقيم دورات ومسابقات وسلكات؛ لتدبر القرآن، ومدارسة القرآن، بدلا من صرف العناية كلها، أو جلها، للحفظ والتجويد- على أهميتهما- ذلكم أن الحفاظ في زمننا كثيرون! - والحمد لله- والمجودين أكثر! ولكن القليل القليل، من يفقه مراد الله من التنزيل! وأقل منه من يحفظ حدوده، ويتمثل بأخلاقه!- كما لا يخفى- ومن المعلوم من الدين بالضرورة، أن القرآن أنزل للتدبر

والعمل - كما سبق بيانه -.

أيها الأوفياء الأعزاء! إنَّ أعلى هدية تُقدَّم اليوم إلى الفقيه فريد - نور الله مضجعه -! هي إقامة الصلاة، والتمسك بالقرآن، وخصوصاً سورة الفرقان! "والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين" الأعراف. هذا ما يسرُّ الأنصاري - حقيقةً - ويؤنسُهُ في وحشته! وهذا ما كان يصدِّع به في رسائل البلاغ والوداع، ويُدنِّدُنْ به إلى أن فارق الحياة! ونرجو الله تعالى أن لا يُخزِيَه في "وارث السرِّ" أيوب، وبقية الورثة! فإن الوارث والموروث أولى ببعضهما في كتاب الله! "وأولوا الأرحام بعضهم أولى بعض في كتاب الله" الأنفال.

فالله الله يا أيوب في هذه التركة العظيمة! الله الله يا ذرية الفقيه! في كدِّ الوالد وأرقه وعرقه! فإننا قد أحسنَّا الظن بهذه الدَّوْحَة المباركة، واستودعنا أمانة الله الموهوب "أيوب". وقديما قيل: "النجيب لا ينجب، فإن أنجب أبداع" فلتكن مبدعا أيها النجيب! وليكن لك من اسمك نصيب! فإنك "أيوب الأنصاري" تأمل! لقد رشحوك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

اللهم إنا نسألك باسمك الحافظ، أن تحفظ ذرية الأنصار، وتغنِيَهُم بالقرآن!! آمين!

أجل، ما كان الشيخ - رحمه الله - يهتم بشيء اهتمامه بالصلاة والقرآن! كانا - بلا شك - شغله الشاغل، وهمُّه الهَمِيم! آية ذلك: كتابه العُجاب: "الدين هو الصلاة...!" ولو استقبل من أمره ما استدبر؛ لما خرج - في تقدير هذا العبد - عن هذين الأصلين في دعوته! بل ولكان فيهما من المجددين - بلا منازع! -

فالله الله يا إخوتي! في الصلاة والقرآن! الله الله في هذين العمودين، والحبْلين الممدودين! فإنه من حفظهما كان لما سواهما أحفظ! ومن ضيَّعهما كان لما سواهما أضيَّع! والسلام" اتل ما أوحى إليك من الكتاب، وأقم الصلاة. إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر العنكبوت.

دفع إشكال، وجواب عن سؤال.

لم يكن لعالمنا ياسادة! طموح سياسي حزبي، ولا انتسابٌ صوفيٌّ تُركي - كما روج البعض - بل كان طموحه المعروف: تعبيد الناس لرب العالمين، وتخرِيجَ جيل من الربانيين القرآنيين، على وزانٍ ما فصله في كتابيه: "الفطرية" و"مفهوم العالمية" وغيرهما من كتبه.

نعم! كان للشيخ - رحمه الله - ماضيه الدَّعوي المعلوم، الذي انتهَى بالانخراط في المجالس العلمية، والمؤسسات الدينية الرسمية - بقناعة علمية - وإنصافه للظاهرية، والحنبلية التيمية، والصوفية، والرموز العلمية، مُستَفِيضٌ مشهور! - وكلامه في كلِّ ذلك كلامُ العالمِ المقاصديِّ الوسطيِّ، المستقلِّ في فهمه ومنهجه، الذي لا يعرفُ الرِّوْغانَ والتملُّقَ، والكذبَ والزورَ! -

وكان له انسجام فكري- وربما روحي أيضا- مع "النوريين" في الماضي والحاضر. -وهذا من قبيل المتواتر-! ولكن مشربته في النهاية، هو: مشرب المغاربة، ومسلكه هو مسلكهم -عقيدة ومنهاجا- لا ينفرد عنهم بشيء! وما نُقل عنه- رحمه الله- من اختيارات فقهية، وآراء تجديدية-هنا وهناك- فهي لا تخرجُ عن "الاجتهاد داخل المذهب"- على حدّ تعبير الأصوليين- ولو تفرغ سيدنا للفقهِ قليلا؛ لكان من فحول المالكية!- بلا نزاع- ولكنه آثر القرآن، وخدمة الإيمان، إلى أن لقي الرحمن! متشعباً بقول بديع الزمان: "هذا زمان إنقاذ الإيمان" وقوله: "الإيمان خبز، والتصوف فاكهة"! -وكل ميسر لما خلق له-. ثم إن فريدا- نورَ الله له في قبره-! ما كان يسعى ألبتة، أن يعرفه الناس، أو أن يزدحموا على نعشه، أو أن يشتغلوا بشخصه الفاني، في حياته أو بعد موته. فذاك كله من مُتعلقات السُّمعة، وخالص الرياء!- كما قال أهل الله- بل كانت وصيته بكلّ حال: "ولكن كونوا ربانيين...". أي موصولين بالرب العظيم، الحي الباقي، الذي لا يموت! مردداً قول الحق سبحانه: "وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم...". آل عمران.

رجاء وتأس:

وإني لأهيب بأحاب الفقيه، وحمّال رسالة القرآن، في كل مكان، أن يطلبوا القرآن طلبا لا يضر بالسنة، وأن يطلبوا السنة طلبا لا يضر بالقرآن. فإن القرآن الكريم- مهما كان حُبنا له- لا يفهم-قطعا- إلا في ضوء السنة، والسيرة، والفقهِ. كما أن العالم القرآني، لا تتمُّ صناعته، ولا تتجلى ربانيته، إلا إذا جمع بين العلم بالله، والعلم بشرع الله، والعلم بالناس- كما كان يردد الفقيه فريد رحمه الله- ومن ثمَّ وجب- إخواني- الاعتناء بكل المعارف والفنون- دراسةً وممارسةً- وفاءً بحق القرآن، ورسالة القرآن. والمُلهَم من ألهمه الله!

وهنا نُمسك عنان القلم، ونترك لينة التمام، للمقرئ الإمام! صاحب "الشاطبية" المُسمّى "حِرزُ الأمانِي وَوَجْهُ التَّهَانِي فِي الْقَرَاءَاتِ السَّبْعِ" العالم الربّاني، الضرير، سيد المسلمين، القاسم بن فيره الشاطبي الأندلسي- نفعنا الله به-

وإن كتابَ الله أوثقُ شافعٍ وأغنى غناءٍ واهباً متفضلاً

إلى أن يقول:

فياأيها القارى به متمسكاً مُجلاً له في كل حال مُبجلاً

هنيئاً مريئاً والداك عليهما ملابسُ أنوار من التاج والحلأ

فما ظنكم بالنجل عند جزائه أولئك أهلُ الله والصفوة الملاء

فهنيئاً مريئاً لوالديك، يا بن الحسن! هنيئاً لك ياأبا أيوب! وجعل الله هذا الكتاب العظيم أوثق شافع! وأغنى

غناءً لنا ولك في الدنيا والآخرة! وحشرنا وإياك مع الأنصار والمهاجرة!

وإنا لله وإنا إليه راجعون!

وكتبه بجنانه وبنانه - بمدينة إبنال الفرنسية الآمنة - الراجي عفو ربه الباري، أحمد أبوخالد الهبطي
الإدريسي الغماري - غفر الله له ولوالديه وللمريه، ولسائر المومنين والمومنات!